مكة في عهد هاشم بن عبد مناف

د.أنمار نزار عبد اللطيف الحديثي
كلية الآداب / جامعة بغداد
قسم التاريخ

مدخل: قادت مكة عبر تاريخها الطويل شخصيات اتسمت بسمات قيادية عديدة مثل المضاض بن عمرو الجرهمي وعمرو بن لحي الخزاعي وقصي بن كلاب وهاشم بن عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم،وهي شخصيات واقعية قادت مكة وحرصت على أن تصل بها إلى المكانة التي وصلتها مع الوعي الكامل بمكانة مكة الدينية.

تتسم الروايات عن تلك الشخصيات بالشحة ويستثنى من ذلك قصي بن كلاب و عبد المطلب بن عبد مناف،و نجد عن الأخير معلومات كثيرة ترتبط بحادثي عام الفيل وحفر بئر زمزم حيث ارتبط اسمه بهما، وحادث عام الفيل من الحوادث المشهورة عند العرب ، حتى أنهم أرخوا به فاشتهرت شخصيته غير إن قرب حياته من الإسلام وارتباط اسمه بالرسول(ص) أضفى بعض المبالغة على المعلومات عن دوره وعن مكانته[1]الأمر الذي دفع المستشرقين إلى الشك ، وبالمقابل فان تشكيك المستشرقين الدائم بقادة مكة يبدو غير منطقي، ويثير الكثير من الشكوك حول دوافعهم، ويدفعنا للتساؤل عن حجم ماضيف من مبالغات على حياة تلك الشخصيات جعلتها أقرب إلى الأسطورة ليبرر لنا إغفال أعمالهم التي طورت مكة ووصلت بها إلى ما وصلت إليه من أهمية لدى العرب وعموم شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام .

نقلت لنا مرويات الرواة والإخباريين الأوائل بعض أعمال هذه الشخصيات، ويجد المتتبع لها حرص أولئك القادة على بناء نظام خاص بمكة وتطويره ليكون نواة لكيان سياسي في وسط شبه الجزيرة العربية يجمع سكانها ويوحدهم . في نوع من التمثل لإعمال السابقين منهم بالرغم من أن الشخصيات الأولى التي قادت مكة (المضاض بن عمرو الجرهمي، وعمرو بن لحي) لم تكن تنتمي نسبا الى مكة، فهي من قبائل يمنية قادت مكة في وقت كان اليمن يقود العرب . حتى جاء قصي بن كلاب من تيماء فانتزع قيادة مكة وطور إدارتها، ونهج سياسة اقرب إلى التوافق مع مصالح مكة منها إلى مصالح اليمن [2] الأمر الذي ساهم بشكل فاعل في اعلاء شأن مكة حيث تفاعلت أنظمة الإدارة المختلفة في البيئات الجنوبية والشمالية من شبه الجزيرة العربية في مكة لتنتج أطرا جديدة فاعلة بلورها قادة مكة بشكل فعال معتمدين على الحراك البشري النشط حول مكة وبشكل دائم ولاسيما في مواسم الحج والتجارة للوصول إلى مبتغاهم في انشاء كيان سياسي . فهؤلاء القادة لم يكونوا بعيدين عن التحولات الجارية في شبه الجزيرة العربية، و لم يكونوا بعيدين عن حاجات ساكنيها وكل مافعلوه هو التأكيد على هوية سكان شبه الجزيرة العربية وكان الحراك البشري وما أتاح من مصاهرات وصلات دور كبير في التغييرات التي شهدتها الجزيرة العربية، وكان لقيادات مكة دور كبير في تفعيل ذلك وتوظيفه في تطوير الكيان السياسي في مكة .

يعد هاشم بن عبد مناف رابع أبرز الشخصيات التي حكمت مكة، التي تعود أهميتها حسب القرآن الكريم، إلى عوامل عدة غير أنها بدأت تتزايد منذ أن ترك النبي إبراهيم (ع) ابنه إسماعيل وزوجته في مكة وتشير الروايات أن قبيلة جرهم التي سكنت مع النبي إسماعيل (ع) وأمه حصلت على المكان نتيجة اتفاق جرى بين هاجر وجرهم، تقدم هاجر بمقتضاه الماء لجرهم و تقوم جرهم بالمقابل بتأمين الحماية والأنسة لهم[3] . وبعد زواج النبي اسماعيل من قبيلة جرهم كانت السيادة على مكة قد انتقلت إلى جرهم بعد وفاته . فكان المضاض بن عمرو الجرهمي من أعظم قادة مكة ـ على حد قول الروايات ـ وبالرغم من الإشارات القليلة عن هذه الشخصية إلا أن هناك روايات تشير أن مكة كانت تعشر البضائع الداخلة إليها[4] وان هناك

عبادة وأصنام[5] بيد أن هذا الجانب وجوانب أخرى كانت أكثر وضوحاً أيام القائد الثاني لمكة وهو عمرو بن لحي[6] ويزداد وضوحها في عهد قصي بن كلاب، وبشكل واسع وبمساحة أكبر من سابقيه ولاحقيه[7] . يرجع السبب ربما إلى نضج التمازج الاجتماعي الذي حصل في عصره بين جميع ساكني شبه الجزيرة العربية لتصبح مكة نواة هذا التمازج[8]، لذلك كانت خطوته الأكبر بين مثيلاتها، لكن هذا لا يعني أن من جاء بعده لم يستطع مواصلة تطوير مكة، على العكس من ذلك كان لإجراءات هاشم بن عبد مناف الأثر الكبير في مواصلة مكة ازدهارها بعد قصي ولتصل مرحلة متقدمة من الأزدهار رسمت لها مكانة بين سكان شبه جزيرة العرب قبيل الإسلام .

أسمه وكنيته:

هو عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النظر بن نزار بن معد بن عدنان وإنما قيل له هاشم لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه.[9] أمه عاتكة بنت مرة بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر [10] .

نساؤه وذريته:

تشير الروايات إلى زيجات هاشم المتعددة، فقد تزوج من بني النجار ومن ثقيف وخزاعة والخزرج وقضاعة، ووُلد له شيبة الحمد (عبد المطلب) وكان سيد قريش حتى هلك. أمه سلمى بنت عمرو ابن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار وهي التي اشترط أباها وكان سيد قومه على هاشم أن يكون مقامها عنده وفي رواية أخرى اشترط أن لا تلد إلا عنده [11] ، ونضله بن هاشم والشفاء وامهما بنت عدي بن عبد الله من قضاعة من بني سلامان، و أسد بن هاشم وأمه قيلة وهي الجزور بنت عامر بن مالك بن جذيمة وهو المصطلق من خزاعة، وأبو صيفي بن هاشم وأسمه عمرو وصيفاً وأمهماهند بنت عمرو بن ثعلبة من بني عوف بن الخزرج [12] .

ويذكر اليعقوبي له من البنات ضعيفة وخالدة وأمهما واقدة بنت ابي عدي وحنة وأمها أم عدي حبيب بن الحارث الثقفية [13] ورقية [14] ماتت وهي جارية لم تبرز وهي أخت عبد المطلب أمها سلمى بنت عمرو[15] .

شخصيته :

تعتبر شخصية هاشم من أبرز الشخصيات التي حكمت مكة قبيل الإسلام وحسب الروايات ، اشتغل بالتجارة منذ الصغر ويبدو انها عادة متبعة من قبل سكان مكة آنذاك ، ومثال عمرو بن لحي الذي مد نشاط مكة التجاري إلى شمال الجزيرة ليعزز نفوذها وليصبح سيدها المطاع حالة سابقة لهاشم تدلل على وجود هذا التقليد[16] فأصبحت لهاشم خبرة واسعة في هذا المجال ولعل الترحال المرتبط بالتجارة (الاتجار) ينمي ملكات خاصة لدى المكيين وعموم ساكني شبه الجزيرة حيث يجعل الإنسان مرتبطاً بالسماء مباشرةً وقد يكون هذا قد ولد انتشار الحنيفية والوعي بالتغيير والثورة ضد كل ما هو غير نافع، ونجد تأثيره بشكل أكبر لدى قادة مكة من خلال ارتباط مكة بالدين وتمسك قادتها بلقب ووظيفة القيم على الحرم [17] وباستثناء المضاض [18] فأن جميع قيادات قريش حرصت على هذا اللقب ووظيفته بدءاً من عمرو بن لحي مروراً بقصي فهاشم وعبد المطلب قبل الإسلام. تجسد الوعي الديني بشكل أكبر لدى المجتمع المكي من خلال مؤتمر مكة المشهور لأربعة نفر من قريش كانت لهم مكانة كبيرة في مكة وتبين فيه مستوى النضج الذي وصل إليه المجتمع في التفكير في حقبة ما قبل الإسلام [19]. يعكس خطاب هاشم عن الحجاج هذا الوعي حيث قال : " إذا حضر الحج يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته خصكم الله بذلك واكرمكم به ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جارمن جاره فاكرموا ضيافه وزوار بيته يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد"[20].

أعمال هاشم بن عبد مناف:

ساهمت نشأة هاشم بن عبد مناف في مكة وبيئتها المنعزلة وترعرعه في بواديها على عادة أهل مكة في إثراء فكره الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . فهو قد عاش في مكة واستوعب حاجات مجتمعه وزار الشام وأصبحت له علاقات معها ومع الإمبراطورية الرومانية وكون فكرة حول آلية التجارة العالمية فوظف هذا كله في تطوير أوضاع مكة وإذ كانت هذه الإجراءات تصب في تطوير مكة تجارياً إلا انه كما فعل سابقيه ـ

عمرو بن لحي وقصي بن كلاب ـ لم يبتعد عن الإطار الديني الذي أصبح سمة مكة في هذه الحقبة وأكد هاشم على هذا الإطار بقوة الهدف منه جذب ساكن شبه الجزيرة العربية وتوجيه الأنظار إلى مكة وتوظيف هذا كله لدفع تجارة مكة لتصبح عالمية بعد أن تمحورت تجارتها في حدود مكة وضواحيها (محلية) [21] و تنسب الروايات لهاشم الأعمال الآتية:

أولا: إلغائه عادة الاعتفاد :

أتجه هاشم في بادئ الأمر إلى مجتمع مكة الذي سادته عادة مرضية أدت إلى تهديد نموه الاجتماعي وهي(الاعتفاد) وحاول القضاء عليها وتشجيع أهل مكة على رفضها وإيجاد علاج اقتصادي يساعد على تجاوزها [22] فأشار هاشم في خطبته إلى أن معدل تآكل تجار مكة بسبب الاعتفاد كان كبيراً جداً وأصبح القرشيون أقل عدداً وأضعف في مواجهة تجار العرب الآخرين وحسب الرواية انه خاطب قريش بقوله: " أنكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتكثر العرب وتذلون وتعز العرب وأنتم أهل حرم الله جل وعلا وأشرف ولد أدم والناس بكم تبع ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم، فقالوا: نحن لك تبع. فقال: ابتدئوا بهذا الرجل ـ ويقصد أبا ترب وترب هذا كان صديق أسد بن هاشم وأسد هو الذي دخل على أبيه هاشم باكياً يخبره بأن عائلة ترب ستعتفد على ما تقوله الرواية ـ فأغنوه عن الاعتفاد"، ففعلوا [23] . فأتاحت خطوته فرصا جيدة للضعفاء والفقراء من أهل مكة بتوظيف أموالهم في التجارة أيا كان المبلغ فدفعت النمو الاجتماعي والاقتصادي للمكيين نحو الأعلى ، ولا سيما التجار . وعلى هذا الأساس بدأ المكيون بتنفيذ مغامراتهم التجارية بصورة جماعية وعلى نطاق واسع . وكان من يوظف أمواله مطمئناً كما أن المخاطر قلت ، وتم التخلي عن الاعتفاد كلياً[24] . و بهذا حقق هاشم أول خطوة لتقوية مجتمعه من الداخل بالمحافظة على التاجر بصورة خاصة وهو رمز المجتمع المكي وكذلك على ساكن مكة بصورة عامة وبذلك حقق عدالة اجتماعية قل نظيرها في إمبراطوريات وحكومات وممالك كانت قائمة آنذاك .

ثانيا : حماية قريش من المتغيرات المفاجئة التي هددتها:

فنجده في إحدى سنوات المجاعة يذهب إلى الشام ويأتي بالدقيق وينحر الجزور ويطعم أهل مكة ومجاوريها فيسمى هاشم من هذه الحادثة لأنه هشم الثريد [25]

ثالثا : حرصه على وحدة قريش:

فحسب الرواية أن أمية بن عبد شمس ـ ابـن أخيه ـ بعدما حاز هاشم على شرف كبير بعد إطعام أهل مكة في عام المجاعة حسده وكان ذا مال فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه فشمت به ناس من قريش فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة فكره هاشم ذلك لسنه وقدره ولم تدعه قريش وحفظوه قال : أني أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة والجلاء عن مكة عشر سنين فرضي بذلك أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي فنفر هاشم عليه فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره وخرج أمية إلى الشام فأقام عشر سنين [26] . ونستنتج من النص أن هاشم ترفع عن المنافرة لسنه وقدره فهو سيد مكة وسيد مكة يبتعد عادةً عن الأمور الصغيرة التي لا تؤدي إلى تطور المجتمع بيد أنه تحت ضغط منتقدي قريش والذي يبدو أنهم كانوا يريدون التشكيك بقيادته نجده ينقاد إلى المنافرة لكن الغاية منها أنه يؤكد فيها بأنه سيد مكة دون منازع فينفر أمية وبسبب قدرته المالية والكرم المتأصل فيه ينجح مرة أخرى في إثبات نفسه كسيد مطاع دون منافس .

رابعاً تنظيم وظائف مكة :

لم يكتف هاشم بما ورثته مكة من وظائف من أيام قصي إنما أعاد توزيع الوظائف بما يتناسب ووضع مكة الجديد،ولعل اهم هذه الوظائف السقاية والرفادة التي أصبحت من صميم الوظائف الدينية المرتبطة بالحج بصورة أساسية. وعملياً كان لابد لهاشم من تكثيف جهوده لحيازة بعض هذه المناصب الدينيةليضيف إلى مكانته ونفوذه شرفاً ولقيادته شرعية اكثرفحازلنفسه السقاية والرفادة فكانت خطوته من ضمن الخطوات التي أنجزها بغية قيادة مكة .

وعلى الرغم من بلوغ هاشم هذه المكانة إلا أن شخصيته بقيت متواضعة تتسم بنكران الذات. وأعطت هذه الأعمال ثمارها فتوجهت أنظار مجتمع مكة نحو سيده الجديد الذي أصبح في هذه المرحلة من حياته يمتلك من المال

و النفوذ ما يكفي لقيادة مكة بيد أن من يريد أن يكون سيد مكة لابد له من استكمال إجراءات أخرى تضفي على قيادته المشروعية ولعل أهم هذه الإجراءات تنظيم الوظائف الدينية التي تعطي صاحبها مكانة وشرفا مضافا إلى نفوذه فعمرو بن لحي أصبح سيد مكة المطاع بعد أن حاز على حجابة البيت وولايته [27] وقصي بن كلاب أصبح سيد مكة بعد أن استرجع ولاية البيت و حجابته من خزاعةوحاز على السدانة والافاضة والنسيء على الرغم من انه وزعهاعلى حلفائه فيما بعد[28] وابتكروظائف أخرىدينية وسياسية [29]. ظهرت سمات الشخصية القائدة لـهاشم بن عبد مناف من خلال أعماله وهي أعمال ارتبطت بالعامة وليس بشخصه فحاز على شرف كبير وهو في سن صغيرة كما حصل لأبيه عبد مناف في حياة أبيه قصي بن كلاب [30] . فأخذ يمارس القيادة والمسؤولية من خلال موقعه ـ كونه سيد مكة ـ وتستمر شخصيته القيادية في السمو ليصبح السيد المطاع. كانت الحجابة [31] والسقايا [32] والرفادة [33] من الوظائف الدينية المهمة في مكة لارتباطها بشعائر الحج أولا، ولقدمها ثانيا، ولما كان الدين يؤطر الحياة العامة في مكة ، وهو أهم ركائز النفوذ والسيطرة فيها منذ إصلاحات عمرو بن لحي، لذلك حرص هاشم على حيازة هذه الوظائف، فكان عليه منافرة بني عبد الدار على وظيفتي الرفادة والسقايا لارتباطهما بالحج بشكل مباشر [34]وترك لهم الأعمال الأخرى ، فنتج عن هذه المنافرة نشوء حلفين في مكة سمي الأول بالمطيبين وضمّ بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة بن كعب ومن كان داخل مكة من بني الحارث بن فهر وهم قوم أبي عبيدة عامر بن الجراح . وحلف لعقه الدم (الاحلاف) وضمّ بنو عبد الدار وبنو مخزوم وبنو سهم وبنو عدي بن كعب [35] .

سعت أطراف الحلفين لتوسيع قاعدتها لتشمل قبائل من خارج مكة ، ولاسيما تلك التي تقع أراضيها على طرق تجارة مكة ، فأصبحت تلك الجهود الأساس في نشوء الايلاف .

خامساً : الإيلاف : [36]

يعد القران الكريم مصدرنا الأول في الوقوف على الإيلاف،أما روايات الإخباريين فهي مستوحاة منه. ووردت الإشارة إلى الإيلاف في القران

الكريم بقوله عزّ وجل: " بسم الله الرحمن الرحيم . لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف."[37] وتذهب روايات المفسرين واللغويين في تحديد دلالة المفرد" إيلاف" إلى" الجمع" و" الإلزام" و" الاعتياد- الألفة" وهي دلالات ذات صلة وثيقة بالعهود الاتفاقات [38] . فهو وصف لسعي أطراف الحلفين إلى تالف القبائل لتعزيز وضعهما في الصراع الذي يبدوا أن ثمة اتفاق على أن لايبلغ الحد الذي يهدد وحدة قريش ومكانة مكة، ومعنى أن تتآلف القبيلة أن يكون بينك وبينها عهداً أو ذمة .

انطلق الرواة والمفسرون وأهل الحديث والمؤرخون من هذه الدلالة في قولهم إن هاشم بن عبد مناف عندما قضى على ظاهرة الاعتفاد كانت لديه فكرة ليعني فيما يعني الانتقال بتجارة مكة من حدودها الداخلية في إطار شبه جزيرة العرب إلى حدود عالمية ، أي ربط الدورة الاقتصادية للجزيرة بالدورة الاقتصادية العالمية ، لتصبح الوسيط الرئيس بين تجارة الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية وبين بلاد الشام العراق والشام ومصر أي التماس مع القوتين المهيمنتين على الاقتصاد العالمي (الساسانيين والبيزنطيين) [39] . وهي خطوة يمكن أن تؤمن مكة ضد أخطار الصراع الساساني- الروماني على طرق التجارة ومناطق النفوذ ، وتثبت مكانتها الاقتصادية في عموم شبه الجزيرة العربية إضافة إلى مكانتها الدينية، ناهيك عن الحفاظ على تراث هذه المنطقة وهويتها .

كان الإيلاف سياسة إستراتيجية أكثر من كونه اتفاقات نقل تجاري. ونقلة تاريخية استطاعت مكة من خلاله أن تفرض مكوناتها السياسية والاقتصادية و الاجتماعية والثقافية على عموم شبه الجزيرة العربية على االرغم من معارضة بعض القبائل لها [40] وأصبح لسان حال المحيطين بها يقول أنه لا يستطيع أن يتاجر إلا مع مكة ويعبد دينها و يتكلم لسانها. لقد أصبح سوق عكاظ معبرا عن هذا الواقع إذ إضافة إلى دوره التجاري لعب دورا اجتماعيا وثقافيا فكانوا يرون فيه الشعر والنثر وحتى أخبار القبيلة وكل هذا بلسان واحد هو لسان قريش. ويصف الحديثي[41] ذلك الدور بقوله" وظهرت نتائج دورهم بقيام سوق عكاظ اكبر مركز للتبادل التجاري

الموسمي في الجزيرة بعد 15 عاماً من سقوط اليمن واتخاذه مقراً للتجارة ثم تطوره اللاحق ليصبح منتدى عربياً للخطابة والشعر وأدى كل من الحج إلى مكة والتجارة في الأسواق إلى تنشيط الحراك الاجتماعي للقبائل العربية وزيادة اختلاط العرب ببعضهم وامتزاج أفكارهم واكتشافهم خصائصهم وسجاياهم المشتركة وساعدهم اتفاقهم على استخدام الخط الشمالي في الكتابة العربية في امتلاك أداة للثقافة الواحدة تنظم معارفهم وخبراتهم الخاصة بأنساب القبائل وتبلور شعوراً عاماً بالالتقاء في نسب عام واهتمام بحفظ أخبارهم وذكريات حياتهم وقد ساعد هذا التكون الثقافي على نضج الشعور بالانتماء القومي الذي بدأ يظهر في الشعر العربي قبيل الإسلام وكان نشوء الحكومة الثقافية بعكاظ والاتفاق على الشعراء السبعة أو العشر الكبار في أن الرأي العام العربي أصبح له ما يوجهه " . إن عدم امتلاكنا عناصر أخرى مؤسسة في الحياة العربية قبل الإسلام يدفعنا إلى الاعتقاد بان ماتحقق كان من معطيات سياسة هاشم بن عبد مناف ويبدو أنه نجح بدليل أن مكة أصبحت قبيل الإسلام محط أنظار جميع القبائل العربية وكياناً سياسياً قاد العرب إلى حين مجيء الإسلام ليصبح العرب في الإسلام أمة واحدة متجانسة يقع على عاتقها نشر دين التوحيد ولعل كل هذا قام بسبب شعور ووعي العرب بأن زمن الوحدة يجب أن يكون وأن تغير الموازين السياسية و العالمية اصبح واجب وان للعرب دور كبير في كل هذه التغييرات فالأرض أرضهم حسب ما تؤكده جغرافية المكان [42] وتجلى هذا الوعي بأعلى مراحله في حرب ذي قار[43] حيث بدأت حروب التحرير للأرض المحتلة ولم يكن كل ما ذكرناه ليكون لولا قيادات مكة ودورها في إرساء هذه الوحدة وكان هاشم ضمن تلك القيادات المميزة التي حكمت مكة.

اقترن الإيلاف في الروايات بأربعة إخوة هم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف وكانوا يؤلفون الجواريتبعون بعضه بعضاً يجيرون قريشاً بميرهم وكانوا يسمون المجيرين فأما هاشم فانه أخذ حبلاً من ملك الروم وأخذ نوفل حبلاً من كسرى وأخذ عبد شمس حبلاً من النجاشي وأخذ المطلب حبلاً من ملوك حمير [44] . وفي رواية أخرى أن هاشم يؤلف إلى الشام وعبد شمس يؤلف إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن ونوفل إلى فارس ومن سياق الرواية نجد أن هاشم هو الذي فكر وهو الذي حث أخوته

على ذلك ، من هنا قول أبن عباس " قد علمت قريش أن أول من أخذ لها الإيلاف هاشم والإيلاف هو العهد و الذمام . كان هاشم بن عبد مناف أخذه من الملوك لقريش" [45] . فالرواية تتحدث عن علاقات قريش التجارية وكيفية تكوين تلك العلاقات وتقسيمها بين سادتها والكيفية التي كان يحرص هاشم فيها على الإيلاف والتأكيد على اخوته في السير على ما سار عليه هاشم وأخذ الإيلاف مع من لهم علاقة تجارية معه والحقيقة أن الإيلاف لم يشمل البلدان التي كانت مكة تختلف إليها فحسب بل شملت جميع القبائل العربية التي كانت تجارة مكة تسير عبر أراضيها للوصول إلى تلك البلدان[46] ، ومن هنا نشأت علاقات تجارية معقدة وواسعة بين قريش والقبائل المجاورة لها أو التي تمر تجارتها بأراضيها من جهة، وبينها وبين البلدان التي تنتهي إليها تجارتها ومثل هذه الشبكة المعقدة والواسعة تدلل على عقلية هاشم التجارية بشكل خاص وعقلية تجار مكة بشكل عام وكيفية استغلال التجارة في عملية البناء السياسي والاجتماعي للمنطقة والأهم بناء الإنسان في شبه الجزيرة العربية وتثبيت هويته. وبذلك بدأت مكة تتطور اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً وسياسياً وجاء هذا التطور في ظروف النضج العام في الوعي العربي لطبيعة المعتقدات الدينية ووصول العرب إلى عبادة آلهة مشتركة وعامة واتخاذ الكعبة مركزاً مقدساً وبيتاً لهذه الآلهة ثم بيت الله الذي عبر العرب عن تعظيمهم له بالحج [47]. أفاد أهل مكة من التجارة والحج وما نجم عنها من مقاييس اجتماعية موحدة واعراف وتقاليد مشتركة وأخيراً التوصل إلى تلك الصيغة من اعتراف القبائل العربية بالمكانة المميزة لقبيلة قريش التي عبرت عنها مواثيق قريش واتفاقياتها مع القبائل المعروفة " الإيلاف " [48] .

إجراءات هاشم الأخرى :

أضاف الإيلاف عبئاً جديداً على مكة و تدلل أعمال هاشم لتطوير السقاية والرفادة إلى زيادة أرقام الحجاج الذين بدؤا يتوافدون على مكة . وأن كانت الرفادة لا تعطي فكرة دقيقة عن الزيادة العددية التي تولد أعباء مالية فالروايات تفيد بأن هاشم كان يطعم الناس في كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش فكان يشتري بما يجتمع عنده دقيقاً ويأخذ من كل ذبيحة من بدنة

أو بقرة أو شاة فخذها، فيجمع ذاك كله ثم يجزر به الدقيق ويطعمه الحاج [49].

تعطي السقاية صورة أوضح عن الزيادة في عدد الحجاج بعد الإيلاف وحسب الروايات : " لما انتشرت قريش وكثر ساكن مكة قلت عليهم المياه واشتدت عليهم المؤنة وعطش الناس بمكة أشد العطش " [50] . ولابد أن هذا حدث بعد الإيلاف حيث بدأ أبناء القبائل التي دخلت في الإيلاف بالتردد على مكة سواء بدافع المشاركة المباشرة بالتجارة كما هو متفق عليه بموجب الإيلاف أو رغبة في الاستيطان في المدينة وهي عملية اقامة مشابهة كثيراً لتلك التي كانت تمارسها قريش قبل ذلك [51] لذلك حفر هاشم بئر(بذر) وقال حين حفرها لاجعلها للناس بلاغاً وكذلك حفر بئر(سجله)فكأنه أراد أن يحفز متنفذي قريش على حفر الآبار وهو ما حصل فعلا فعبد شمس حفر بئر الطوي وكذلك حفر أمية بن عبد شمس بئر الجفر وكانت لهم بئر ام جعلان والعلوق [52] وهي جميعاً تدلل على مدى الزيادة العددية في مكة سواء في موسم الحج أو في غيره ولم يتوقف الأمر على ذلك بل كان هاشم يأمر بحياض من آدم فتجعل في موضع زمزمم ثم يسقي فيها من الآبار التي بمكة فيشرب منها الحاج [53] . وهذه دلالة على أهمية العناية بالحجاج كونهم ضيوف الله وحرص قيادات مكة على تنمية الشعور بالمسؤولية لدى أبناء مجتمعها بأنهم أهل الحرم، وبالتالي فإكرام ضيوف الله يأتي في مقدمة أهم واجباتهم .

خاتمة

ومن هذا يمكن الاستنتاج :

1) دأب المستشرقون ومن نحى منحاهم من المؤرخين العرب والمحدثين المسلمين بأن يصفوا قيادات مكة بأنها أسطورة أكثر مما هي حقيقة[54]بيد ان من غير المعقول أن يكون ما قيل عنها غير واقعي فلم تكن للإسلام مصلحة في رفع مكانة أشخاص لم يكونوا مسلمين.
2) إن قيادات مكة حرصت باستمرار على مكانة المدينة وازدهارها،وان أعمالها اتسمت بالواقعية.

3) ان الأساس في وظائف هذه القيادات كان الحفاظ على المكانة الدينية للمدينة .
4) ان إجراءاتهم ارتبطت بإخضاع النظام العام في المدينة للوظيفة الدينية.
5) ان هاشم بن عبد مناف تميز من تلك القيادات بصفات شخصية مقنعة للمجتمع المكي.

المصادروالمراجع

1. القرآن الكريم
2. ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي الجزري(ت 630هـ) ، الكامل في التاريخ ، تحقيق كارلوس وهنس ، (بيروت : دار صادر ، 1979) .
3. ابن سعد : محمد بن منبع (ت 230هـ) ، الطبقات الكبير ، تحقيق ادوار سخو ، (ليدن ، مطبعة بريل ، 1225هـ) .
4. ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774هـ) ،البداية والنهاية ، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي،
(بيروت : دار احياء التراث العربي ، 1997) .
5. ابن الكلبي: هشام بن محمد السائب(ت 204هـ) ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق محمد الفردوس العظم، (دمشق : دار اليقظة العربية ، 1983) .
6. ابن هشام : أبو محمد عبد الملك (ت 213 هـ) ، السيرة النبوية، تعليق طه عبد الرؤف سعد ،(القاهرة : شركة الطباعة الفنية المتحدة ، 1971) .

7. الأزرقي : أبو الوليد محمد بن عبد الله (ت 244) ، أخبار مكة وما جاء فيها من أثار ، تحقيق رشدي صالح ملحس ، ط3 ، (بيروت : دار الأندلس للطباعة والنشر ، 1969) .
8. البكري: أبو عبيدة عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ) ، معجم ما استعجم(من أسماء البلاد والمواضع)، تحقيق الدكتور جمال طلبة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998) .
9.البلاذري: أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر(ت 270هـ)، أنساب الأشراف، تحقيق محمد الفردوس العظم ، (دمشق:دار اليقظة العربية، 1997) .
10. الجميلي : خضير عباس فياض ، قبيلة الازد ودورها في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ، رسالة دكتوراه ، (كلية التربية- الجامعة المستنصرية ، 1996) / دور قريش قبل الإسلام، رسالة ماجستير، (معهد الدراسات القومية والاشتراكية ـ الجامعة المستنصرية ، 986) .
11. الحديثي : أنمار نزار عبد اللطيف ، الديانة الوضعية عند العرب قبل الإسلام ، اطروحة دكتوراه، (كلية الآداب ـ جامعة بغداد ، 2003) .
12. الحديثي : نزارعبد اللطيف سعود ، اللامة والدولة في سياسة النبي(صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين،(بغداد: دار الحرية للطباعة ، 1987) .
13. السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله(ت 581هـ) ، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية ، تعليق طه عبد الرؤف سعد ، (القاهرة: شركة الطباعة الفنية المتحدة ،1971) .
14. الطبري : محمد بن جرير ، (ت 310) ، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ، (مصر : دار المعارف ، 961).
15. العاصمي : عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي (ت 1111هـ) ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، تحقيق أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ،
(بيروت : دار الكتب العلمية ، 1998) .
16. عبد الكريم: خليل ، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية ، ط 2، (القاهرة : سينا للنشر ، 1997) .
17. العلي : صالح أحمد ، محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام، (الموصل مطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، 1981) .

18. علي : جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (بيروت: دار العلم للملايين ، 1968) .
19. القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت 821هـ) ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الأبياري، (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر ، 1959) .
20. اليعقوبي : أحمد بن اسحاق (ت 92) ، تاريخ ، تعليق خليل منصور ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، 1999) .
21. Ibrahim : m ,merchant capital and Islam , (university of Texas press ,Austin , 1989).
22. Crone: Patricia, maccan Trade and The rise of Islam, (Princeton university press).

الهوامش

(1) اليعقوبي : أحمد بن اسحاق (ت 292 هـ) ، تاريخ ، تعليق خليل منصور ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، 1999م) ، 210/1 – 217 ؛ الطبري : محمد بن جرير(ت 310هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد بن أبو الفضل ، (مصر: دار المعارف ، 1961م) ، 246/2- 215 .

(2) الازرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله (ت244هـ) ؛ أخبار مكة وما جاء فيها من آثار ، تحقيق رشدي صالح ، بيروت : دار الأندلس 1969م) ؛ ابن كثير:عماد الدين أبوالفداء اسماعيل (ت 774هـ) ،البداية والنهاية ، قدم له محمد عبد الرحمن المرعشلي،(بيروت : دار احياء التراث العربي،1997) ، 206/2 ؛ الجميلي : خضير عباس فياض ، دور قريش قبل الإسلام ، رسالة ماجستير ، (معهد الدراسات القومية والاشتراكية ـ الجامعة المستنصرية ، 1986) ، ص 26 .

(3) الازرقي، أخبار،12/ 57 ؛ الطبري ، تاريخ ،258/1 ؛ العاصمي : عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي (ت 1111 هـ) ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، تحقيق الشيخين أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998)، 219/1؛ Ibrahim : m ,merchant capital and Islam , (university of Texas press ,Austin , 1989) ,p.35 .

(4) الازرقي ، أخبار ،85/1؛ ابن كثير ، البداية ، 2 /153 .

(5) الحديثي : أنمار نزار ، الديانة الوضعية عند العرب قبل الإسلام ، اطروحة دكتوراه، (كلية الآداب – جامعة بغداد ، 2003) ، ص14 . ويعتقد الباحث أن أساف ونائلة والغزالين هما آلهة قبيلة جرهم .
(6) المصدر نفسه ، ص 145 وما بعدها .
(7) ألجميلي ، دور، ص26 وما بعدها؛ ألحديثي، ص155 وما بعدها .
(8) تظهر نتيجة هذا التمازج بشكل واضح في زيجات هاشم بن عبد مناف الذي تزوج من (6) قبائل وهو ما سنعرضه لاحقا
(9) أبن الكلبي : هشام بن محمد السائب (ت 204هـ) ،جمهرة أنساب العرب ، تحقيق محمود الفردوس العظم ، (دمشق : دار اليقظة العربية ، 1983) ، 13/1 ؛ البلاذري : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت 270هـ) ، انساب الأشراف ، تحقيق محمود الفردوس العظم ، (دمشق : دار اليقظة العربية ، 1997) ، 66/1 ؛ علي : جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (بيروت : دار العلم للملايين، 1968) ، 66/4.
(10) أبن الكلبي ، جمهرة, 12/ 14.
(11) ابن الكلبي ، جمهرة ،15/1 ؛ أبن سعد : محمد بن منبع (ت 230هـ) ، الطبقات الكبير ، تحقيق ادوارد سخو ، (ليدن : مطبعة بريل ، 1225هـ) ، 46/1؛ أبن كثير ، البداية ، 204/2 .
(12) ابن الكلبي ، جمهرة ، 1 / 16 ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، 1 / 208 ؛ القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت 821 هـ) ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الايباري ، (القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر ، 1959) ، ص 435 .
(13) كذا في المصدروالاصح ام عدي بنت حبيب بن الحارث الثقفية.اليعقوبي ، تاريخ ، 1 / 209 .
(14) ابن كثير ، البداية ، 2 / 205 .
(15) ابن سعد ، الطبقات ، 1 / 46 . وهي غير رقية بنت هاشم أخت نضلة والشفاء وأمهم أميمة بنت عدي القضاعية حسب رواية ابن سعد .
(16) يشار إلى عمرو بن لحي وهو خزاعي سكن مكة انه زار مدن كهيت في العراق والبلقاء في الشام وقد حاز عبد مناف بن قصي على شرف في حياة أبيه قصي ويبدو ان هاشم قد اشتغل في التجارة منذ صغره لأنه حاز على شرف ومال قبل أن يصبح سيد مكة . ابن سعد ، الطبقات ، 1 / 241 ؛ الازرقي، أخبار ، 1 / 100 ، 109 ؛ الحديثي ، الديانة ، ص 145 .يستمر هذا التقليد بعد هاشم والإشارة إلى حفيده رسول الله محمد(صلى الله عليه وسلم) واشتغاله بالتجارة وعمره تسع سنوات واضحة. ابن كثير، البداية، 229/2؛ ألحديثي، نزار عبد اللطيف، الأمة والدولة في سياسة النبي(صلىالله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين، (بغداد، دار الحرية للطباعة،1987)، ص48.

(17) فعمرو بن لحي كسى الحاج البرود اليمنية وقصي بن كلاب جعل لهم الرفادة والسقايا وكذلك هاشم . الحديثي ، الديانة ، ص 146 -147 ، 157 – 158 وانظر خطبة هاشم بهذا الخصوص .الازرقي ، أخبار ، 1/ 195 .
(18) قد يكون السبب قلة المعلومات عنه فلم تصل إلينا إشارات تدل على ذلك .
(19) الحديثي ، الديانة ، ص 159 – 160 .
(20) ابن هشام : أبو محمد عبد الملك (ت 213 هـ) ، السيرة النبوية ، تعليق طه عبد الرؤف سعد، (القاهرة : شركة الطباعة الفنية المتحدة ، 1971) ، 157/1؛ ابن سعد، الطبقات، 45/1؛ الازرقي ، أخبار ، 1/ 195 ؛ اليعقوبي ، تاريخ ،1 / 107.
(21) عبد الكريم ، خليل ، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية ، ط2 (القاهرة : سينا للنشر ، 1997 م) ص49-54 قريش .
(22) الاعتفاد : إذا أصابت واحد من تجار مكة مخمصة (مجاعة) جرى هو وعياله إلى موضع معروف فضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا اتقاء لمعرة التسول ومد اليد إلى الغير وآنفة من طلب الإحسان من القريب أو الغريب وحدث أن أسرة من بني مخزوم شرعت في الاعتفاد فبلغ ذلك هاشماً ففزع أشد ما يكون الفزع . علي ، المفصل ، 5 / 82 – 83 ، عبد الكريم ، قريش ، ص 61 ؛ Ibrahim , merchant , p.41
(23) العلي ، المفصل ، 82/5 – 83 .
(24) Ibrahim, merchant, 41
(25) الازرقي ، أخبار ، 1 / 111 ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، 1 / 206 ؛ الطبري ، تاريخ، 251/2 – 252 ؛ السيهلي : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت 581) ، الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية ، تعليق طه عبد الرؤف سعد ، (القاهرة : شركة الطباعة الفنية المتحدة ، 1971)، 161/1 ؛ عبد الكريم، ص 50-51 . وعلى ما يبدو أن مثل هذه الحادثة كانت تتكرر في مكة فعمرو بن لحي قد سبق هاشم بهذا العمل وهودلالة على طبيعة مكة الصحراوية ـ وادي غير ذي زرع ـ فطبيعتها القاسية تجعل من المجاعة أمرا طبيعيا .
(26) ابن سعد ، الطبقات ، 1 / 44 ؛ الطبري ، تاريخ ، 2 / 253 .
(27) الازرقي ، أخبار ، 1 / 96 ؛ الفاسي : تقي الدين محمد بن أحمد (ت 832هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، 1998) ، 1/ 305 .
(28) ألحديثي، الديانة ، ص 156 .
(29) الازرقي ، أخبار ، 1/ 107 – 108 ؛ ابن كثير ، البداية ، 2 /173 ؛ الجميلي ، دور قريش ، ص 28 وما بعدها ؛ ألحديثي ، الديانة ، ص156 وما بعدها .
(30) الازرقي ، أخبار ، 1 / 109 .

(31) الحجابة : الحجاب الستر والحجابة هي حجابة الكعبة وهي سدانتها وتولي حفظها وهم الذين بأيديهم مفاتيحها وكانت الحجابة بيد بني عبد الدار بن قصي . ابن منظور، لسان ، 1 / 298 .

(32) السقاية : السقاية الاناء يسقى به وهو الصاع والصواع بعينه والسقاية الموضع الذي يتخذ فيه الشراب في المواسم والسقاية سقاية الحاج سقيهم الشراب وهو من مآثر الجاهلية وهو ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء . ابن منظور ، لسان ، 14 / 391 – 392 .

(33) الرفادة : شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية فيخرج كل إنسان مالاً بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً أيام الموسم فيشترون به للحاج الجزور والطعام والزبيب للنبيذ فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام موسم الحج وكانت الرفادة والسقاية لبني هاشم . ابن منظور ، لسان ، 3/ 181 .

(34) عبد الكريم ، قريش ، ص 49 – 54 .

(35) تختلف رواية الازرقي واليعقوبي عن الرواية المشهورة للمنافرة من أجل الوظائف الدينية حيث يرويان ان انتقال الوظائف كان سلمي وان قصي وزعها على أبناءه . الازرقي ، أخبار ، 1 / 109 – 110 ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، 1/ 206 . بينما المصادر التي ذكرت المنافرة هي: ابن سعد ، الطبقات ، 1 / 44 – 45 ؛ البلاذري ، أنساب ، 63/1 – 64 ؛ ابن كثير ، البداية ، 2 / 175؛ علي، المفصل ، 4 / 60-64 .

(36) لقد راجعنا كلمة إيلاف في مكتبة الحضارة والتاريخ ومكتبة التفسير ومكتبة الحديث على الكومبيوتر وظهرت على الشكل الآتي (إيلاف) عند الطبري في تاريخه وأبن منظور في لسان العرب مرتبطة بهاشم بأنه صاحب الإيلاف وعلى الشكل (الإيلاف) عند الزمخشري في كتابه الفائق وعند أبن منظور في لسان العرب بمعنى الحبل والعهد عن رواية لابن عباس وكذلك عند ابن الجوزي في المنتظم لنفس الرواية وعلى شكل (الايلاف) بمعنى العهد والذمام في لسان العرب لأبن منظور وأخيراً على شكل (لإيلاف) أيضاً في لسان العرب لأبن منظور .

(37) سورة قريش ، الآية 1-5 ؛ سورة ال عمران ، الآية 103،سورة الأنفال ، الآية 63.

(38) ابن منظور، لسان، 9/9-11 لاتشير الروايات إلى تطور مدلول (إيلاف) ففي اللغة ألف ألف الألف من العدد معروف مذكر والجمع آلف . وألف الشيءألفا وإلافاوألفانا وألفة لزمه وآلفه إياه ألزمه ويقال الموضع أولفه إيلافاً وكذلك آلفت الموضع أؤالفه مؤالفة وإلافا وألفت بين الشيئين تأليفاً فتألفا وأتلفا وفي التنزيل العزيز لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فيمن جعل الهاء مفعولاً ورحلة مفعولاً ثانياً وفي إيلاف قريش ثلاثة أوجه لإيلاف ولإلاف ووجه ثالث لإلف قريش . وقد قرئ بالوجهين الأولين أبو عبيدة ألفت الشيء وآلفته بمعنى واحد لزمته فهو مؤلف ومألوف والإيلاف

من يؤلفون أي يهيئون ويجهزون قال ابن الأعرابي يتألفون أي يستجيرون وفي حديث ابن عباس وقد علمت قريش أن أول من أخذ لها الايلاف لهاشم . الايلاف العهدالذمام ويتألفون بمعنى يستجيرون والايلاف الحبل .

(39)عبدالكريم، قريش، ص52-58؛. Ibrahim , merchant ,p.p 42-44
(40) Crone: Patricia, maccan Trade and The rise of Islam, (Princeton university press), p.182.

(41) الأمة ، ص 35
(42) البكري : أبو عبيدة عبد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ) ، معجم ما ستعجم(من أسماء البلاد والمواضع) ، تحقيق الدكتور جمال طلبة ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، 1998)، 1/7-20 .
(43) ولأهميتها قال عنها الرسول : " اليوم أنتصف العرب من العجم " . الطبري ، تاريخ 207/2 ؛ العلي : صالح أحمد ، محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (الموصل : مطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، 1981) ، ص 71.
(44) ابن منظور ، لسان ،10/9.
(45)المصدر نفسه .
(46). Ibrahim , merchant , p.p.42-44
(47) الحديثي ، الأمة ، ص44 .
(48) الحديثي ، الأمة ، ص 44 .
(49) ابن سعد ، الطبقات ، 1 / 45 ، يشير إلى مساهمة الموسرين من أهل مكة بمائة مثقال هرقلية .الازرقي ، أخبار ، 1 /111 . لمزيد من التفاصيل انظر علي، المفصل، 65/4.
(50) الازرقي ، أخبار، 2 / 221 .
(51) Ibrahim, Merchant, P. 44.
(52) الازرقي ، أخبار ، 1 / 113 ، 2 / 216 – 218.
(53) اليعقوبي ، تاريخ ،207/1 ؛ علي ، المفصل ، 4 / 66 .
(54) كمثال على ذلك .Crone, maccan,P.P.211 – 216